هوامش

أظهرت لقطات مصوّرة هدم مقابر أثريّة في جبانة المماليك بالقاهرة، بحجة إنشاء طريق جديد، الأمر الذي فتح باب النقد بسبب إهمال الآثار وعدم الحفاظ عليها

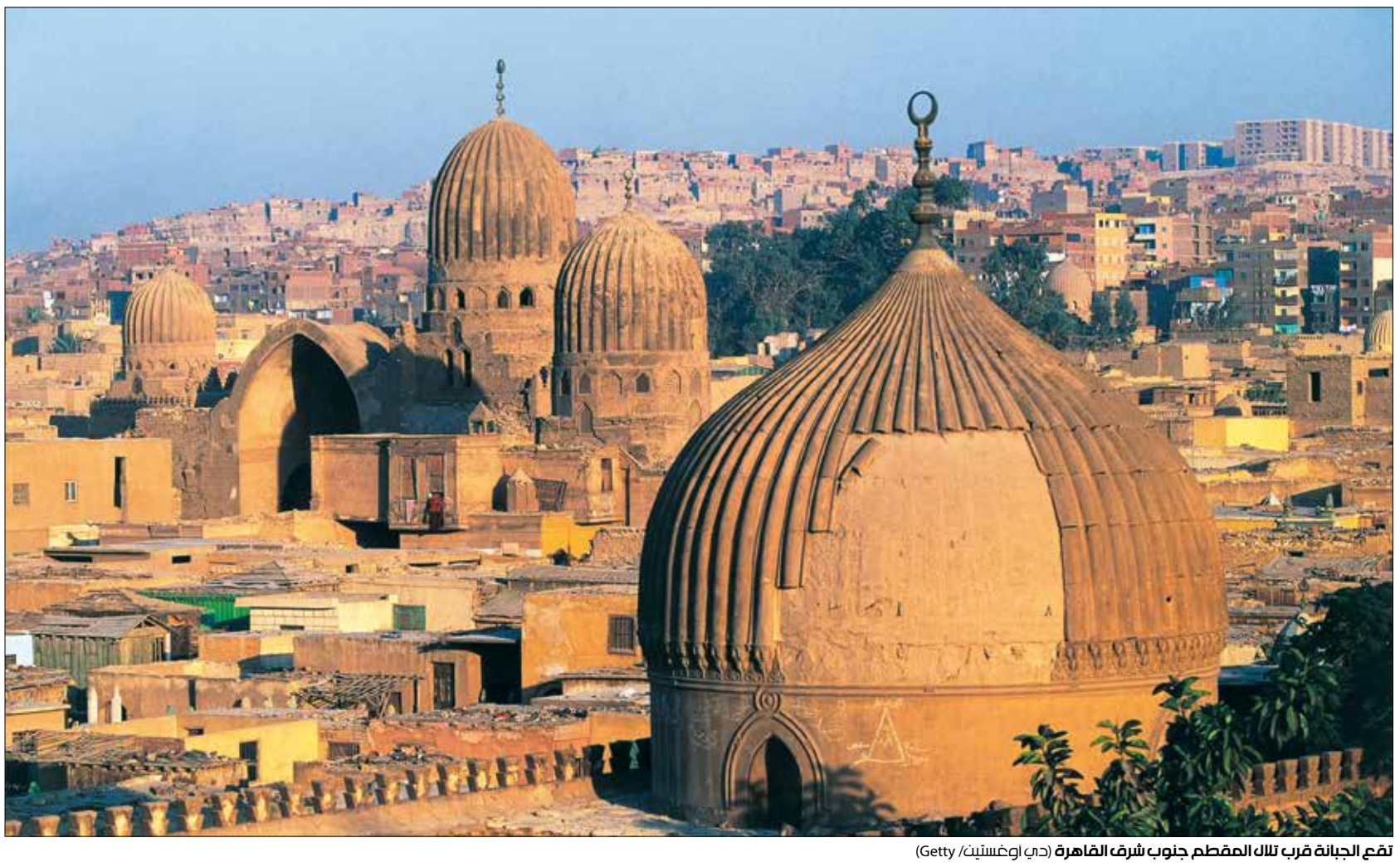

تقع الجبانة قرب تلال المقطم جنوب شرق القاهرة (دي اوغستين/ Getty)

جبانة المماليك

الطريق ليس من هنا

القاهرة ـ **محمد كريم**

حالة من الغضب أثارتها لقطات مصوّرة تُظهر هدم مقابر أثرية في جبانة المماليك بالقاهرة من أجل إنشاء طريق. في الوقت الذي رد عليه مسؤولون بقطاع الآثار الإسلامية والقبطية، بأن ما يتم هدمه حالياً ليس مسجلاً ضمن قائمة الآثار.

هذا التصريح الرسمي فتح باباً كبيراً من النقد الموجه للجهات المعنية بسبب تكاسلها عن تعيين الآثار والحفاظ عليها، فالآثار المسجلة لا تعني أنها وحدها هي الآثار التي تستحق الحفاظ عليها. وبعض المباني لا تحتاج صكًا بأثريتها، فأماكنها وطرازها وآثار الزمن ومواد بنائها تصرخ بكونها أثرًا، ولأجل الحفاظ على مثل هذه المناطق المتفردة تُشق الأنفاق.

سوابق محبطة

السوابق المحبطة لقطاع الآثار في منطقة جبانة المماليك تقلل من قيمة تصريحاتها الرسمية، فهي، مثلاً، لم تقم حتى الآن بتسجيل الضريح المهمل للعز بن عبد السلام (577-660هـ) ضمن قوائمها. كما أن بعض الآثار المسجلة فعلياً مثل قبة السلطان طومان باي أبو سعيد على طريق صلاح سالم أصبحت مكباً للنفايات ومأوىً للمتشردين. في حين ضاعت في مراحل سابقة مقابر تحوي رفات المقريزي وابن خلدون و12 عالماً آخر كانوا مدفونين في «حوش الصوفية»، حيث يقبعون الآن، بعد هدمه، تحت أسفلت الطريق الواصل بين حي الدرّاسة وباب الشعرية. إضافة إلى إهدار القيمة الأثرية لبعض الأحواش بعد تحويلها لمساكن.

نشأة الجبانة

يطلق على جبانة المماليك أيضاً أسماء: مقابر الخلفاء أو صحراء قايتباي أو القرافة الكبرى، ويعود تاريخها إلى سبعة قرون مضت. وهي أكبر منطقة أثرية إسلامية. وهي عبارة عن شبكة كثيفة من هياكل القبور والأضرحة، إلى جانب العديد من المساجد والتكايا، وكانت في الأصل ساحة للألعاب أيام المماليك. تقع الجبانة، قرب تلال المقطم جنوب شرق القاهرة، وتمتد من الشمال إلى الجنوب على مساحة تبلغ حوالي 6،4 كيلومترات مربعة. وقد سميت بالقرافة الكبرى تمييزاً لها عن تلك التي على سطح المقطم ويطلق عليها أهل القاهرة مقابر الإمام الشافعي، نسبة للإمام المدفون بها. تضم منطقة القرافة الكبرى والصغرى معاً عدداً من المساجد الأثرية يزيد عن 30 مسجداً، من بينها مسجد قايتباي، ومسجد وخانقاه السلطان الأشرف برسباي، ومسجد قرقماس، ومسجد ابن برقوق، وقبة جاني بك الأشرفي، وقبة قرقماس، وتكية أحمد أبو سيف، خانقاه أم أتوك، وغيرها. أما عن القباب والأضرحة الشهيرة؛ فمنها: ضريح الأميرة «طولية» زوجة السلطان الملك الناصر حسن، وقبة خديجة أم الأشرف برسباي، وقبة السبع بنات، وقبة الرفاعي... وغيرها.

زمن الأحواش

في ظل تحول مصر لولاية عثمانية (1517-1802)، ومع تداول الباشوات العثمانيين حكم مصر، ظهرت القبور التي تحوي جثامين هؤلاء الباشوات في صورة «أحواش» أو مربعات صغيرة تضم داخلها قبر الباشا وعدة قبور لأسرته، وتمتاز تلك الأحواش بالفخامة وتوافر المرافق اللازمة لخدمة المشيعين والزائرين للقبر. فكانت الزخارف والمنحوتات والرموز الجنائزية والمقابر المزينة بالديكورات المذهّبة بجانب أشجار الفاكهة والزهور هي سمة مدافن الأثرياء والنبلاء في ذلك العصر. كانت خدمة تلك الأحواش ورعايتها هي البداية في اتجاه بعض الناس للسكن في القبور، فقد توارثت الأجيال المتعاقبة تلك الأحواش، وصارت بفعل وضع اليد، وغياب الزائرين على المدى الطويل، ملكاً لسكانها، يبيعونها لغيرهم ويؤجرونها. واليوم أصبح الدخول إلى القرافة مثل الدخول إلى أي حي سكني طبيعي، حيث تتوافر الكثير من الخدمات الاجتماعية والاقتصادية للسكان الذين اعتادوا على الحياة في صحبة الأموات.

من الغريب أن المجلس الأعلى للآثار في سنة 2014؛ استقبل ستة مشاريع من مكاتب استشارية لتحويل منطقة «جبانة المماليك» إلى منطقة تراثية سكنية وتطويرها وتنميتها مرفقياً وخدمياً وعمرانياً ومجتمعياً وثقافياً وتراثياً وسياحياً، من أجل وضعها على قائمة التراث العالمي وبرنامج المزارات السياحية وخريطة السياحة العالمية، وقد لاقت الفكرة قبولاً واسعاً لدى الأوساط الأثرية والثقافية، لكنّ أياً من تلك المشروعات لم يجد طريقه للتنفيذ حتى الآن. إلى أن تفاجأ الجميع بالجرافات التي تقوم بهدم كل مبنى يمثل عائقاً أمام الطريق المزمع إنشاؤه!

باختصار

بعض الآثار مثل قبة السلطان طومان باي أبو سعيد على طريق صلاح سالم أصبحت مكباً للنفايات ومأوىً للمتشردين

■■■

ضاعت مقابر تحوي رفات المقريزي وابن خلدون و12 عالماً آخر كانوا مدفونين في «حوش الصوفية» إثر هدمه

■■■

كانت خدمة تلك الأحواش ورعايتها هي البداية في اتجاه بعض الناس للسكن في القبور، فقد توارثت الأجيال المتعاقبة تلك الأحواش

وأخيراً

مهابيل مجلس الشعب والرئاسة

خطيب بدلة

تقام في سورية، كل أربع سنوات، انتخابات مجلس الشعب التي يسميها الإعلام البعثي «عرس الديمقراطية». وهي تسميةٌ ذات دلالتين متناقضتين: الأولى أنهم يعرفون أهمية الديمقراطية في حفظ حقوق الشعوب وحمايتها من غدر الزمان، ولذلك يغنون لها ويدبكون ويطلقون النار في الهواء ونساؤهم يزغردن. والثانية أنهم يعتبرون الديمقراطية عروساً، ويمارسون ذكورتهم عليها في ليلة الدخلة.

تروج، فور الإعلان عن بدء الترشح لعضوية مجلس الشعب، سوقُ المجانين والمهابيل، فينزلون إلى الشوارع كما لو أنهم سجناء يُسمح لهم بالخروج في الوقت المخصص لـ «التنفس»، فترى، حيثما مشيتَ، رجلاً ترتسم على وجهه علامات البلاهة يدخل في تجمع للأهالي، ويعلن فيهم أنه سيرشّح نفسه لعضوية مجلس الشعب، استجابةً لإرادة الجماهير التي ترى أن وجوده تحت قبة المجلس ضرورة تاريخية!

كره السوريون حياتهم، وثيابَهم من استبداد نظام الأسد، ودجله، وعرسه الديمقراطي المزيف، المحكوم بقائمة الجبهة الوطنية التقدمية التي تُسمى «القائمة السحرية»، لأنها تُعْلَن قبل الانتخابات بيومين، فيفرح المرشحون الذين دفعوا ما فتح الله ورزق من الرشاوى، حتى جعلوا أبناءَ الأسرة الحاكمة والقيادات المخابراتية العليا يوافقون على إدراج أسمائهم فيها. ويقيمون الأفراح والليالي الملاح أمام بيوتهم، يغنّون، ويدبكون، ويطلقون النار في الهواء، وتزغرد نساؤهم احتفالاً بنجاحهم الذي سيتحوّل إلى حقيقة واقعة بعد يومين، أي حينما تُجرى الانتخابات. ولهذا ترى الأهالي، ومن باب النكاية، يؤيدون المرشحين المهابيل، ويركضون وراءهم في الأزقة، ويهتفون بأسمائهم، مثلما حصل مع المرشح عبد الحميد الفارط (اسم افتراضي) الذي رشّح نفسه في إدلب سنة 1994، فتبنته مجموعة من الظرفاء و«المسخرجية»، وطبعوا له صوراً للدعاية، كتبوا تحتها عبارة: انتخبوا مرشحكم المتماسك عبد الحميد الفارط، وأقاموا له سرادقا وضعوا في مدخله صورتَه (المرشح) إلى جانب صورة حافظ الأسد بالزي الفلاحي. وأحضروا جهاز تسجيل ذا مكبرات ضخمة يبث على مدار اليوم الأغاني القومية، وجهزوا أباريق الشاي ودلات القهوة المرّة، وراحوا يطلبون من مرشحهم الجريء «الفارط» أن يلقي بياناته الانتخابية كلما تجمع بضعةُ أشخاص في السرادق، فكان يصعد فوق برميل المازوت الفارغ الذي وضع في صدر المجلس خصيصاً لهذه الغاية، ويبدأ إطلاق الوعود التي لم تكن موجودة في جعبته من قبل، وإنما أتت استجابة لطلبات المواطنين (الجماهير)، ومنها هدم مدينة إدلب وإعادة بنائها على أوتوستراد حلب دمشق، لتصبح قادرةً على فقء حصرمةٍ في عين مدينة سراقب التي وضعها حظها الذي يفلق الصخر على الطريق العام! ومنها إعفاء شباب إدلب من العسكرية، وتسيير قطار إلى مختلف أنحاء سورية، على أن تمر سكته في شارع الجلاء، وتنعطّف غرباً مروراً بسوق الصياغ.

> كره السوريون حيا تهم، وثيابَهم من استبداد نظام الأسد، ودجله، وعرسه الديمقراطي المزيف

لا توجد حدود فاصلة بين المهابيل الذين يرشّحون أنفسهم لعضوية مجلس الشعب، ويتحولون إلى مادة للضحك والتندّر، وبين الأعضاء الذين حصلوا على العضوية بالفعل، فهؤلاء لا يقلون هبلاً عن أولئك، وهذا ظهر جلياً من خلال فيديو لعضو يدعو إلى مكافحة الإرهاب بالطبل والزمر، ويتحدّث عن «شهداء» يأتون إلى رجال الأعمال، ويطلبون منهم كراسي متحرّكة ليجلسوا عليها، بعدما فقدوا أطرافهم السفلية! ناهيك بأعضاء كثيرين لا يعرفهم الناس، لأنهم يبقون ساكتين طوال سنوات العضوية الأربع.

ويبدو أن ظهور الهَبَل في سورية مرتبطٌ على نحو عضوي بقضايا الترشّح لمنصبٍ ما، فقد شاء قدرنا، نحن اللاجئين الهاربين من جحيم الكيماوي والبراميل، أن نستفتح سنة 2020 بتصريح لموظف إسرائيلي، اسمه أيدي كوهين، يتحدث عن رحيل الأسد، وعينك لا ترى إلا النور، إذا لم يبق أهبل أو مؤجّر الطابقَ الفوقاني إلا وأعلن ترشّحه لرئاسة الجمهورية. وكلهم، بلا استثناء، يسجلون فيديو على «يوتيوب» يعدوننا فيه بالويل والثبور وعظائم الأمور، ويؤكدون لنا أنهم قادمون إلينا بموجب توافق دولي، وبالإجماع، مثل قرارات مجلس الشعب المذكور أعلاه.

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,20**, Austria **€ 2,20**, Belgium **€ 2,20**, France **€ 2,20**, Germany **€ 2,30**, Holland **€ 2,30**, Italy **€ 2,10**, Spain **€ 2,20**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 5,00**, USA **$ 2,00**